مقالة مصورة:
نماذج من سعة النفوس
واحتمالها ما يستثقل

من كتاب

الثِّقلُ والاستثقالُ

تأليف
د. محمد بن إبراهيم الحمد

الحضارة
الطبعة الأولى

المسألة الرابعة عشرة

نماذج من سعة النفوس، واحتمالها ما يُسْتَثْقَل

الأمثلة على ذلك كثيرة جداً - ولله الحمد - ولا زالت مجتمعات المسلمين ترعى هذه الحقوق، وقد ذكرتُ شيئاً من هذا القبيل في كتاب (مروءات معاصرة)، ومما أذكره مما وقفت عليه من ذلك ما يلي:

١ هذه امرأة خطبها رجل قبل ما يزيد على خمسين سنة، وكان لذلك الرجل زوجة وعدد من البنين والبنات، والرجل يكبر المخطوبة بسنوات ليست بالقليلة.

وأما مخطوبته فكانت بكراً لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، وكانت محطَّ أنظار الشباب الذين لم يتزوجوا بعد.

غير أن ذلك الرجل بذل غاية ما يستطيع من المحاولات التي قوبلت بالرفض، ولكنه لم ييأس حتى ظفر ببغيته.

وكانت تلك المرأة الجديدة الصغيرة ذات دين، وعقل، وصيانة، وحسن تربية.

ولما قَدِمَتْ إلى بيتها الجديد الذي كان في بلد بعيدٍ عن بلد أهلها - لم تُدِلَّ بنفسها، ولم تشمخ بأنفها على ضَرَّتها، ولم تستنكف من أولاده.

بل عاشت معهم في بيت واحد، وعدَّت نفسها واحدة من أهل ذلك البيت، وعاملت ضرتها بأحسن ما تكون المعاملة، وعدَّت أولاد زوجها من ضرتها أولاداً لها.

وهكذا مرت الأيام دون أن تشتكي أو تتبرم من أحد من أهل البيت، بل قامت مع ضرتها برعاية والدي زوجها خير رعاية إلى أن فارقا الدنيا.

وعاشت مع زوجها وضرتها وأولاد زوجها متعاونين متوادين إلى أن فارق زوجها الدنيا بعد أن عاش معها ما يزيد على ثلاثين عاماً.

وقد كان بينهم جميعاً من الود ما يفوق الوصف، ومما كان من ذلك أن تلك الزوجة الثانية لم ترزق بأولاد؛ فكان أولاد ضرتها، بل وأحفاد ضرتها يحبونها كمحبتهم لوالدتهم وجدتهم؛ فكانوا يستشيرونها في كل صغيرة وكبيرة، وكانوا معها على تواصل مستمر يكاد يفوق تواصلهم بأمهاتهم، وجدتهم.

وكان ذلك على مرأى ومسمع من أمهم وهي لا تنهرهم، ولا تنهاهم عن ذلك، بل إنها تضمر لضرتها الود والاحترام.

ومما كان بينهم -أيضاً- أنه لما مات الزوج، وانقضت عدة زوجتيه أرادت الزوجة الأخيرة أن تأتي إلى بيت أهلها الذين كانوا في مدينةٍ أخرى؛ فخشيت ضرتها وأولاد الضرة أن تذهب عنهم، وتسكن في بيت أهلها؛ فما كان منهم إلا أن رافقوها جميعاً إلى بلد أهلها.

ولما وصلوا إلى بيت أهلها دخلوا معها على أمِّها تتقدمهم الضرة ومن خلفها بعض أولادها، فقالت الضرة لأم الزوجة الثانية: يا أم فلان! هذه فلانة انقضت عدتها، وأتت لزيارتكم كالعادة؛ فإن كانت المسألة زيارة فحسب، ثم ترجع معنا إلى بيتنا فالحمد لله، ولتمكث عندكم ما شاء الله لها أن تمكث.

وإن كانت الأخرى؛ بحيث أنها سَتَدَعُنا، وتقيم عندكم إقامة دائمة- فلن نبرح مكاننا هذا، وسنقيم معها حيث أقامت.

قالت الضرة ذلك وهي تبكي، ومن ورائها أولادها يبكون.

فقالت أم الزوجة الثانية: إن فلانة -تعني ابنتها- عاقلة رشيدة؛ فإن أرادت المكث عندنا فهذا هو منزلها، وهي محل

التقدير والترحاب مني ومن إخوانها، وإن اختارت العيش معكم فلها ذلك.

حينها أجهشوا بالبكاء، وتوسلوا إلى زوجة أبيهم أن توافقهم على طلبهم، وأن تعيش معهم، وتأتي لزيارة أمها وأهلها متى شاءت؛ فأجابتهم، ووافقتهم على طلبهم؛ ففرحوا أيما فرح، وقالوا: إذاً نودعكم، وسنعود إلى بلدنا منتظرين عودة أمِّنا الثانية؛ فمكثت فترة عند أهلها، ثم عادت إلى مكانها الأول، حيث أُعِدَّ لها مكانٌ خاصٌّ بين بيوتهم، مجاورٌ لضرتها تماماً وبينهما باب لا يغلق.

ومما كان -أيضاً- بين الضرتين من الود أن الأولى لا يمكن أن تتناول قهوتها في الصباح إلا بحضرة الثانية، ولا تذهب إلى سفر سواء كان ذلك إلى مكة المكرمة أو غيرها إلا بصحبة ضرتها.

بل إن الزوجة الثانية إذا ذهبت إلى زيارة أهلها لا يتوقف هاتفها الخاص من اتصالات ضرتها، أو أولاد الضرة وأحفادها.

بل إنهم يستعجلون عودتها، وإذا تباطؤوها زاروها عند أهلها، وإذا علموا وقت عودتها تنافسوا على المجيء لأخذها.

فهذه نبذة يسيرة من حال تلك الضرة، وما ذكرته لم يحدثني به أحد، بل وقفت عليه، ولا أزال أقف على أضعاف أضعاف

ما ذكرته مما بينهم من الود، ولو استرسلت في ذلك لخشيت ألا أُصَدَّق.

بل إن من يعرف تلك الحال لا يستغرب، وربما عاتبني على تقصيري.

وهكذا نرى أن النفوسَ إذا زكت، وآثرت، واستعلت - كانت العاقبة حميدة مريئة في العاجل والآجل.

وعـن الإيثــار لا تسـأل فـما
أجمـل الإيثـارَ عنـد الكرمـا

ولكنها إذا استأثرت، وَلَجَّت في عتوها ونفورها خسرت من الدنيا والآخرة بقدر ما انتقصت من معاني الإيثار، وبقدر ما استوفت من معاني الأثرة.